الحقيقة المحمدية والعلم الحديث

معراج الأنبياء والمقام المحمود

للأستاذ حسنى طه شكيبان

بسم الله الرحمن الرحيم . . . وبه نستعين ، ونستفتح بالذى هو خير . . .

قلنا — بنور توفيق الله العظيم — :

إذا كان الوجود — فى أرض وسموات — مظهراً لقدرة الله . . .

وإذا كانت الحياة المنبثة فى أعماق الكون مظهراً جليلا لحكمة الله . . .

فقد جاء محمد الكريم — بإرادة الرحمن الكريم — سر هذه الحياة ورحمتها ، وقائدها وكمالها ، ونورها وهداها . .

قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين . . . وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين . فهو أقرب كائن يستمد الفيض الربانى ، ومنه يفيض الرحمن على عباده وخلائقه فى العالمين رحمة النور والهداية ، فتتخلل أنظار هداه أعماق الحياة حيث كانت . وذلك مفهوم قوله تعالى : « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » .

ومفهوم أحاديثه الكريمة : إنما أنا رحمة مهداة . . إنما أنا قاسم والله يعطى . . .

وما أروع ما قاله الصوفية فى هذا المقام عن حضرة المصطفى لذات الله من جميع خلائقه فى قمة المعارج ، حيث المقام المحمود الذى لاينبغى لأحد سواه .

قالوا : اللهم إنه سرك الجامع لكل الأسرار ، ونورك الواسع لجميع الأنوار ، ودليلك الدال بك عليك ، وقائد ركب عوالمك إليك ، وحجابك الأعظم القائم لك بين يديك ، فلا يصل وأصل إلا إلى حضرته المانعة ، ولا يهتدى حائر إلا بأنواره اللامعة . . .

فهو الفيض الأول ، والتعين الرحمانى الأول حتى صار بذلك المظهر الربانى الأعلى والنور الأسمى ، والرحمة الكبرى . . .

فإذا ظهرت القدرة الربانية فى الوجود ، واستعلنت فى كتاب الحياة ، فقد تبلجت فى النبوات الهاديات ، وقد تجلت فى كمال الحياة ونور هداها . . . فى محمد الكريم إنسان عين الوجود ، والسبب فى كل موجود . . . صورة الحق ، ومنطق الحكمة الرحمانية .

وقالوا — وبحق ما قالوا — إن الله العظيم يتجلى بصفاته وأسمائه فى الوجود . . كل عالم يختص ببعض صفاته الكريمة . . . إلا الإنسان فهو صاحب الكمال من صفات الحق . . . الأول والآخر والظاهر والباطن والنور والحق المبين ، والرءوف الرحيم . . . وذلك الكمال تجلى فى خلفائه الكرام ، واكتمل فى كيان حبيبه محمد . . . فكان بذلك صورة التدبير الربانى ، وصورة الحكمة الرحمانية :

إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله . . . وما ينطق عن الهوى . . . إن هو إلا وحى يوحى ولذلك قال عليم العلماء محمد الكريم : خلق الله آدم على صورته — وفى رواية — على صورة الرحمن ... وفسرها بحديث آخر : تخلقوا بأخلاق الله . . .

أى أعدوا أنفسكم لتظهر فيها تجليات الحق فى صفاته الكريمة ، فتكونوا بحق وجهاً لحكمة الله ومظهراً كريماً لخلافته . . . إنى جاعل فى الأرض خليفة . . .

لكل كائن معراج . . .

ومعناه أن لكل كائن معراجاً فى مراقى الكمال هو مقامه فى الوجود بين يدى ربه . . منهم من هو فى حجب الظلام — وهو دركات — ومنهم من هو فى حجب النور — وهو درجات — ومنهم من هو فى درجات القرب — وهو مقامات — « إن لله سبعين ألف حجاب من الظلمة ، وسبعين ألف حجاب من النور » .

وفى الحديث : ما من ميت إلا ويرى مقعده من الجنة أو النار . . .

أما الذين سبقت لهم من الله الحسنى . . . فأولئك يعيشون فى معراجهم ، وإن رآهم الناس على الأرض بشراً يأكلون ويشربون . . . ذلك أنهم هناك بكيانهم ،

ومن مقام هذا المعراج يستمد الرحمة للناس نوراً وهدى ، ومن شربه يعيش فى حضرة من القرب الكريم . .

وتسترشد فى هذا الفقه الكريم بحديث عليم العلماء محمد الكريم :

« ليست هيئتكم كهيئتى . . إنى أبيت عند ربى يطعمنى ويسقين » . والحديث : « حبب إلىّ من دنياكم ثلاث : الطيب والنساء ، وجعلت قرة عينى فى الصلاة . . » فهيئته غير طبيعة الناس . . فهى من هناك حيث لا هناك . . وهو يبيت عند ربه وإن بات بين الناس . . وهو مجبور على حياة الدنيا بين الناس رحمة بالناس فى مجالهم فليمسكه بمجالهم أكمل مظهر لديهم . . . الطيب عبير الدنيا الجميل . . . والنساء غرس الحياة ليكون من نوره الكريم لبنات الحياة المتسامية المشرقة بنور الله ورحمة الله .

أما الصلاة فقرة عينه ؛ لأن فيها معراج كيانه فى المجال المادى . . . وإلا فهو عين الصلاة . . إنه نور الصلاة والصلة بالله . . فهو صاحب القبضة النورانية والفيض الأول فى مقام « قاب قوسين أو أدنى . . . » فهو لذلك عين الصلاة . . . ولكنه (وقد أريد على المقام فى مجال المادة) فليكن له منها صلات وروابط . . . طيب ونساء وكمال فى صلاة . . . فليست هيئته كهيئة العالمين فى كيانه الحقيق . ودونك من آيات الله العظيم مزيد بيان . . الله يقول : إن الله وملائكته يصلون على النبى . . يأيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما . . . » « فكان قاب قوسين أو أدنى » .

فإذا كانت الصلاة صلة ، فقد أعلن رب العزة أنه صلى الله عليه وسلم فى أكرم صلة به تعالى . فى أعلا مقام فى « وإن الله لمع المحسنين » . « يحبهم ويحبونه » . ثم الملائكة ؛ ليزدادوا من الله قرباً وكرامة ، صلوا على الرسول ؛ ليستمدوا منه أول النفحات الرحمانية من حضرة المقام المحمود . . .

فالصلاة منه تعالى قرب وتكريم . . . ومن الملائكة ترق ومصاحبة . . .

ومن المسلمين تقرب وزلفى من الله فى محبة حبيبه ونور قيادته فى قربهم منه صلى الله عليه وسلم . . . وكذلك يقول الرسول : أقربكم منى مجلساً يوم القيامة أكثركم على صلاة . . .

بل ما يزال يصلى المرء حتى يصبح هدفاً لقرب الملائكة من المصطفى حيث يوكل الله به سبعين ملكا يصلون عليه . . ثم مزيداً من الفضل يصلى عليه رب العزة كل صلاة وقرب من رسول الله عشر صلوات وقربات وتكريم من الله . . . قال الرسول الكريم « فإنه من صلى علىّ مرة صلى الله عليه عشراً . . . » .

معراج الأنبياء :

ومعنى ما سبق . . أن لكل كائن معراجه القائم فى كيانه ، فلا يطلع عليه إلا عند الوفاة . . كل على قدره . . إلا الذين سبقت لهم من الله الحسنى . . من الأولياء فالأنبياء فكرام الأنبياء فقد خصوا بالحياة فى مجالين كريمين . . مجال المادة فى الثوب البشرى بقوانينه . ومجال النور الأسنى فى معراج الكمال بين يدى الرحمن ، فليست هيئة الناس كهيئتهم ، فهم يبيتون عند ربهم فى نور قربه وكرامته ، ولكل فى مقامه : « وما منا إلا له مقام معلوم » رأوه هنا قبل أن ينتقلوا إليه هناك ، بل عاشوا فيه ، فكان لهم منه فى الدنيا كرامة ظاهرة فى معجزات باهرة ، وانتقلوا إليه حيث شاهدهم المصطفى الكريم فى إعلان معراجه حيث شاهد إبرهيم فى مقام الخلة مسنداً ظهره إلى ساق العرش ، وشاهد موسى فى المناجاة من وراء حجاب فى السماء السادسة ، ورأى هارون فى الخامسة ، وإدريس فى الرابعة ، ويوسف فى الثالثة ويحيى وعيسى فى الثانية وآدم فى الأولى . . .

ومن معراج الخلة أخذ ابراهيم دلال المحبة ، ومن مقامها كشف له ملكوت العالمين فهو دون رب العالمين « واتخذ الله ابراهيم خليلا » .

وقيل له فى مقام الخلة : « وكذلك نرى ابراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين » .

وقال هو فى دلال المحبة : أرنى كيف تحيي الموتى . . قال : أو لم تؤمن . ؟ قال بلى ولكن ليطمئن قلبى . . . » وكان من مقتضياتها أن يستغنى بالله العظيم عن كل العالمين . . فلما ألقى فى النار جاءه جبريل بالعون : ألك حاجة ؟ . فقابله بالاستغناء : أما إليك فلا . . . واتجه إلى الخليل الأعظم بمقام الرضا بما قضى ؛ فلن يكون من الخليل إلا الكرامة لخليله ، والطلب منه بعد مناقضة لمقام الخلة . لذلك قال :

« أما إلى الله ، فعلمه بحالى غنى عن سؤالى » . . . ذلك معراج وهذا مقامه ، وتلك كرامته . . . فى أتم يقظة وإدراك . . .

معراج آدم :

ومعراج آدم استخلاف من الله كريم ، وتكريم بين الملائكة والجن أجمعين ، وعلو فوق الجن وأستاذية كبرى للملائكة ...

فكان من مقامه . . جنة لا يظمأ فيها ولا يضحى ، ولا يجوع فيها ولا يعرى فى طبيعة ملائكية علوية يأكل من غير جوع ولا شبع ، ويشرب من غير ظمأ أو امتلاء ، وينعم من غير كدح أو شقاء . .

ثم استعداد لمعراج كامل فى حجب الأنوار العليا . . ليعلم ما لم يكن يعلم . . فبعد ما علم الأسماء كلها فى الوجود . . عليه أن يتعرف عليها فى تجليات رب الوجود . .

ولكنه اختصر الرحلة إلى حيث هبط عما كان له من مقام فأصبح فى مجال المادة يبحث عن معراج ليرقى به إلى حيث كان . . أستاذاً وخليفة فى جنة لا يظمأ فيها ولا يضحى ...

وكان من رحمة الله به أن فتح له باب المعراج فكان فى صلاة ...

حيث أقام « أول بيت وضع للناس الذى ببكة مباركا وهدى للعالمين فيه آيات بينات مقام ابراهيم ومن دخله كان آمنا ... » .

وكل نبى يبدأ من حيث بدأ آدم . . خليفة لله وأستاذاً للملائكة بما يعلمه الله من الأسماء كلها ميراثاً كريماً وحقاً مكتسباً من الأب الأول آدم ...

ولكنهم يرقون غالباً فيكون لهم من معراجهم مقام وكرامة ...